**المحاضرة الأولى**

**مدخل إلى النص الشعري المغاربي الحديث**

**الحياة العامة في العصر الحديث**

**تجربة الأمير عبد القادر الجزائري الشعرية بين التقليد و التجديد.**

**تمهيد**

**تمثل بلاد المغرب العربي المسرح الحي الذي شهد انبعاث أهم الحضارات الإنسانية ، فإذا كانت تخومه الشمالية تلامس الثلوج ، فإن حدوده الجنوبية منفتحة على أكبر الصحاري في العالم ،**

**و قد كان لهذا التناقض دورا في تلاقح الثقافة الشرقية مع ثقافة المغرب العربي و يعتبر النص الشعري المغاربي امتدادا طبيعيا و موضوعيا للشعر العربي بالمشرق و قد توالى مع الدويلات التي تعاقبت على المغرب الإسلامي كما ارتبط زمنيا بدول الأندلس حيث كانت الحركة الأدبية واحدة في عموم الغرب الإسلامي ، و لما كانت منطقة المغرب العربي امتدادا طبيعيا للمنطقة العربية ،فقد عرفت هي الأخرى في العصر الحديث حركية شعرية واكبت بها ما هو حاصل في المشرق العربي من جهة ، كما أرست لقاعدة شعرية مغاربية تحمل خصوصية المنطقة من جهة أخرى .**

**و المغرب العربي هو تلك البلاد الممتدة في شمال إفريقيا . من غربي مصر إلى المحيط الأطلسي ،**

**و يقصد بالأدب العربي المغربي الحديث هو ذلك النتاج الأدبي الذي شهد ميلاده عصر النهضة العربية الذي صادف بدء الثلث الأخير من القرن التاسع عشر و امتد إلى يومنا هذا ، لذلك يكون من الضروري التأريخ إلى جذور و بوادر الأدب المغاربي الأولى مع موازاتها بأختها المشرقية لأن في القيام بهذا العمل خدمة علمية قيمة لمعرفة الهوية الحقيقية للثقافة المغاربية .**

**كما لا يخفى على القارئ أن الأدب العربي المغاربي قد لقي الكثير من الإهمال و التهميش في العالم العربي ، و يعزى ذلك لأسباب كثيرة لعل أهمها إهمال المغاربة لماضيهم و حاضرهم حتى أوقعوا الغير في الجهل بهم.**

**ماهية الحداثة :**

**لعل سؤال الحداثة من أكثر الأسئلة تداولا في حياتنا العربية منذ ما يزيد على القرن من الزمن ذلك أن الإنسان العربي ظل يتساءل عن الحداثة ينقب عنها يراها ضرورة صالحة حينا و تطفلا باطلا حينا آخر يحتضنها مرة لأنه يحتاجها لحماية نفسه و يغلق دونها الأبواب و ينظر إليها كأنها جسد غريب مرة أخرى لأنه يراها تحطم ماضيه و ذاكرته بل و وجوده المقدس و قد تعددت تعاريفها فقيل :" ذلك الوعي الجديد بمتغيرات الحياة و المستجدات الحضارية و الانسلاخ من أغلال الماضي ..." محمد بنيس حداثة السؤال دار التنوير بيروت ط 1 سنة 1985 ص 131**

**الحياة الأدبية في العصر الحديث : سبق العصر الحديث عصران من الأعصر التاريخية و هما الحكم المملوكي و الحكم العثماني الذي أدخل الثقافة العربية في ليل طويل من الجمود الفكري والأدبي أسلم الأمة العربية إلى محنة الاستعمار حيث تآمرت عليه دول أوروبا و اقتسموا ما أسموه :"تركة الرجل المريض "و هناك أسباب أدت إلى انهيار هذا الحكم من بينها :**

**ــ ما اتصف به الحكم العثماني من الجور و الظلم و مصادرة الأموال .**

**ــ انتشار الفقر و الجهل في البلاد التابعة للحكم العثماني .**

**ــ فرض اللغة التركية على الشعب و جعلها اللغة الرسمية**

**ــ العمل على إلغاء ديوان الإنشاء .**

**كما اتسم الأدب بالضعف و الابتذال و انتشرت الأخطاء اللغوية و النحوية ، كما شاعت العامية وتسربت إليه بعض الألفاظ التركية كما أغرق الأدباء في التصنع و التكلف .**

**أصول الأدب الجزائري : تعود أصول الأدب الجزائري إلى الحضارة الإسلامية فمعظم الدويلات التي قامت على هذه الأرض كانت تتمتع بثقافة عربية إسلامية و هذا عن طريق الزوايا و الطرق التي استطاعت أن تحافظ على الثقافة الإسلامية و من رواد النهضة الثقافية زمن الأمير عبد القادر ، ، محمد القاضي ، محمد الشابي (1807ـــ 1887) و في النثر حمدان بن عثمان خوجة (1773ـــ 1840)صاحب كتاب المرآة و محمد بن العنابي (1851ـــ1775)و قدور بن رويلة و هو شاعر و كاتب ومحمد الشاذلي القسنطيني .**

**إذا أردنا أن نحتكم إلى المدلول الزمني المتعارف عليه للفظة الحديث في الأدب العربي و الذي يمتد إلى عهد محمد علي في مصر لاندرج الأمير عبد القادر الجزائري في صلب هذا المدلول فأشعاره تمتد امتداد ثورته سنة 1832 حتى وفاته 1882 و تميز مضمونه البطولي في تلك الفترة المبكرة من تباشير الحداثة و المتأخرة عن رواسب عهد الانحطاط بالرغم من اهتزاز الصيغة البنيوية لقصيدته والمدلول الحسي لصوره ، يذهب الحسن الوداني في كتابه أعيان البيان في القرن 13 ه الذي صدر في القاهرة سنة 1914 و الذي درج فيه الأمير عبد القادر مع معاصريه أمثال رفاعة الطهطاوي وأحمد فارس الشدياق و بطرس البستاني و ناصيف اليازجي و مما قاله في ترجمة الأمير : " فبطل الجزائر و أن كان من أرباب السيف فقد كان أهلا للقلم لا يغمد أحدهما حتى يجرد صاحبه فيبرى بالأول الرؤوس و الهامات .**

**الأمير عبد القادر الرجل الأسطورة فارس شاعر متصوف ، نمى و ترعرع في أرض البطولة و الفداء وغذته تربة دماء الشهداء ، الشخصية الناذرة حامل لواء السيف و الشعر مؤسس الدولة و ممهد طريق النهضة الأدبية الحديثة في القرن 18 في المغرب العربي بصفة عامة و في الجزائر بصفة خاصة**

**و قد قال عنه الدكتور زكرياء صيام في بحث طويل قيم :" لم تكن شخصية الأمير ذات جانب سياسي أو عسكري أو أدبي أو علمي فقط و لكنها كانت هؤلاء جميعا إن الأمير عبد القادر استطاع أن يجمع بين الأصالة و التجديد في شعره و أن سعة أفقه التاريخي و الفني و الديني و الاجتماعي أتاحت له تجربة رائدة جعلته يقف في طليعة الشعراء "الأميرة بديعة الحسيني الجزائري ك فكر الأمير عبد القادر حقائق و وثائق .**

**و يقول نور سلمان :" أن شعر الأمير عبد القادر أمير السيف و القلم أكثر متانة و عذوبة من شعر معاصريه و أنه من النوع السهل الممتنع"**

**.** مدخل إلى دراسة الشعر المغاربي الحديث .

تجربة الأمير عبد القادر الجزائري

يتبدى للدارس لشخصية الأمير عبد القادر الجزائري جملة من الشخصيات، فهو المجاهد المكافح المغوار، وهو الفارس الذي لا يُشقُ له غبار، وهو الفقيه العلاّمة الموسوعي، البحر الزاخر في شتى العلوم والفنون، وهو المتصوف الشاعر، والشاعر المتصوف، الذي عُرف بتغريده في سماوات الشعر، وتحليقه في آفاقه الرحبة، وطرقه لمختلف الأغراض الشعرية.

    إن الأمير عبد القادر واحد من الشخصيات الفذة التي ستظل الأجيال تذكرها على مر الأزمان، وهو مصباح من المصابيح الوهاجة التي قلما يجود الزمان بأمثالها.

 الأغراض الشعرية عند الأمير عبد القادر:

**أولاً :الفخر والحماسة:**

**.**

**لا نستغرب من استكثار الأمير للفخر والحماسة،فهو ابن عائلة شريفة، ذات حسب ونسب، عظيمة الشأن، فهو ينتمي إلى«الدوحة النبوية الشريفة، فهو من الفرع الحسني، الذي يستمد قدره من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-. من هنا كانت حتمية تقديم الولاء والطاعة لهذه الدوحة النبوية، وطلب الشفاعة النبوية، وبذلك يؤمن المرء لنفسه الاستقرار الروحي والنفسي:**

**أبوُنا رسولُ الله خيرُ الورى طُرا   فمن في الورى يبغي يطاولنا قدرا**

**ولانا غداً ديناً وفرضاً مُحَتماً   على كل ذي لب به يأمنُ الغدرا**

**الفروسية عند الأمير ليست ادعاء، ولكنها تجارب مريرة، ومعاناة واقعية، وفخرياته ليست قعقعة جوفاء، ولكنها صدى لقعقعات سلاحه، ولا هي برق خلب، ولكنها وميض سيوف، ولا هي ضباب زائف، ولكنها غبار حروب، فهو الفعال قبل أن يقول، وهو الذي يُفرق بين الادعاء والأصالة، بين اللفظة الجوفاء، واللفظة المشحونة بالبرهان الواقعي، فهو القائل:**

**وما كُلُّ شهمِ يدعي السبق صادقٌ    إذا سيق للميدان بأن لهُ الخُسرُ**

**وما كُلُّ من يعلو الجواد بفارِسٍ    إذا ثار نقعُ الحرب والجوّ مغبرُ**

**وما كُلُّ سيف (ذو الفقار) بحدِّه   ولا كل كرَّارٍ (عليا) إذا كَرُّوا**

**وما كُلُّ طيرِ طار في الجو فاتكاً   وما كل صباح إذا صرصر الصَّقرُ**

**فذا مثلُ للمدّعين، ومن يكن      على قدم صدق، طبيباً له خبرُ**

**-دفاعه عن جيشه: ويبلغ شعره ذروة الحماسة حين يُنصب نفسه للدفاع عن جيشه خلافاً لعادة الملوك والأمراء، فهو الدرع الواقي، والحزام الأمين لجيشه، فهؤلاء الفوارس الذين يماثلون الأشبال قسوة وشجاعة وهيبة يتقنون الطعن والضرب بالأمير الذي يُدافع عنهم ويحميهم:**

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يقول **الأمير محمد (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر:**

**" إن الأمير عبد القادر واحد من الشخصيات الفذة التي ستظل الأجيال تذكرها على مر الأزمان، وهو مصباح من المصابيح الوهاجة التي قلما يجود الزمان بأمثالها، وبادئ ذي بدء نقدم هذا الوصف الشامل الذي أورده العلاّمة الدكتور ممدوح حقي في تقديمه لديوانه، والذي وصفه به ابنه الأمير محمد في كتابه (تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر)، إذ يقول عنه:**

**«كان معتدل الطول، مليء الجسم، يعلوه رأس ضخم، يتوجه شعر كثّ مختضب بالسواد. يبرز من بين عينيه الشهلاوين أنف أقنى، مطلّ على فم مطبق، تموج فيه ابتسامة تطمع بحنان ناعم، وراءه حزم حازم، يشع من عينين نافذتين كالكهرباء. يمشي مستقيماً، ويقعد كالمستوفز، وينهض بعزم، إذا ركب وثب إلى ظهر الجواد وثباً، وبقي إلى آخر أيامه يحبّ الخيل، ويداعبها،ويُعنى بها، ولا يسير  إلا مزعاً وإرقالاً. يصحو من نومه قبل الفجر، فيصلّي الصبح حاضراً، ويقرأ ورده المعتاد بصوت هادئ مسموع، ثم يضطجع، فيغفو إلى ما بعد بزوغ الشمس، وينهض ليملأ نهاره بعمل مستمر. لا ينقطع لحظة واحدة عن عمل يؤديه، أو كتاب يستفيد منه، أو مؤلف يعدّه، أو قصيدة ينظمها، أو رسالة يحبّرها... وأكثر رسائله من المطولات، فإذا وجد فضلة من وقت اشترك في خياطة ثوب، أو مباراة بالشطرنج مع أحد أخصائه.**

**وكان يُجيد استخدام الإبرة في السلم إجادته استخدام السيف في الحرب، لا يهدأ و لا يفتر: عاملاً، جاداً طوال يومه، حتى يصلي العشاء الآخرة، فيذهب إلى فراشه ليستريح من عناء نهار كامل، لم يترك فيه دقيقة واحدة بغير عمل. وكان حادّ الذكاء، عجيب الحافظة، بارعاً في تصريف الأمور، شديد التمسك بدينه، حافظاً عهوده، ووعوده، غير أنه كان عصبي المزاج، عنيفاً في الدفاع عما يعتقد أنه حق، لا يلين للقوة مهما قست وطغت، فيه شيء من عنهجية البادية وعنادها على ليونة في القلب أمام الجمال، وتراخٍ لعزة المرأة»(1).**

**ولا يختلف اثنان في شجاعة الأمير عبد القادر، وبسالته الخارقة، فلا نعجب عندما يقترح عليه والده الشيخ محيي الدين قيادة الحركة الجهادية، فيُلبي مباشرة دون أي اعتراض على الرغم من حداثة سنه قائلاً: «إن واجبي طاعة أوامر والدي».**

**وقد كان الأمير حاكماً عادلاً، وفارساً مقداماً، وشاعراً خنذيذاً، وقائداً فذاً، فقال عنه العقيد الإنجليزي شارل هنري تشرشل متحدثاً عن شخصيته، وعن نظرة مواطنيه إليه: إنهم كانوا ينظرون إليه «بتقديس خرافي إلى رجل يتمتع بشخصية رسمية، ويتقدم بلا خوف دون أن يلحقه أذى حيثما هدد الخطر، فهو مرة يمرق من صفوف الرماة الأعداء، ومرة يطلق النار في شكل تربيعي، ويكتسح حربات البنادق بسيفه، وأخرى يقف دون حراك مشيراً بامتعاض إلى قنابل المدافع وهي تئز حول رأسه، وإلى القذائف وهي تنفجر حول قدميه. فكان الرجل قدوة في الشجاعة والثبات مثل الحلم والعدل مع خصومه أسرى بين يديه، فكان المحارب الموهوب، والحاكم الفذ، فسجل له التاريخ في كل ذلك، وفي جهاده بشكل أخص مواقف بطولية أجبرت أعتى الجنرالات الفرنسيين على إبرام هدنات معه، واتفاقيات كان يستغلها بدوره للتدريب والتنظيم واستيراد السلاح من خارج الجزائر، فمضى على هذا النهج حتى كانت الفاجعة التي اضطرته إلى وضع السلاح، عام1947م بعد الخيانات والمؤامرات، بشروط أخلّ بها المحتلون الفرنسيون، فبدل أن يُفسحوا له في باخرة لهم للاتجاه إلى المشرق العربي أو تركيا وجهوها نحو فرنسا، فبات في وضع أسير تحت الإقامة الجبرية في أمبواز بجنوب فرنسا، حيث مكث حتى عام1852م، حين أطلق سراحه، فانتقل إلى إسطنبول، فأهداه السلطان العثماني قصراً في(بروسة) لم يمكث فيه أكثر من سنتين بعدها قرّر الاستقرار في دمشق، منطلقاً منها في عدة رحلات داخل الوطن العربي وخارجه حتى وفاته سنة: (1300هـ/1883م)»(2).**